العدد 3376 - السنة الثانية عشرة
الخميس 18 رمضان 1440 - الموافق 23 مايو 2019
Thursday 23 May 2019 - No.3376 - 12 th Year

الانتقال إلى صقلية بعد سقوط الدولة الإسلامية لأن الملك النورماني في ذلك الوقت «روجر الثاني» كان محباً للمعرفة

الإدريسي .. طور رسم الخرائط وجعلها أكثر دقة

تمثال للإدريسي في سبتة

الادريسي في قاعة روجر الثاني مع حشد من الوجهاء والأمراء ويقوم بشرح كروية الأرض

محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود القرشي، ولقب بالصقلي لأنه اتخذ جزيرة صقلية مكانا له بعد سقوط الدولة الإسلامية. ولقب بسطرابون العرب نسبة للجغرافي الإغريقي الكبير سطرابون. وقد كان من أبرز الدارسين في علم الرياضيات.

ولد في مدينة سبتة في المغرب الأقصى عام 493 هـ (1100 م) ومات عام 559هـ 1166م. تعلم في البيلق وطاف البلاد فزار الحجاز و تهامة ومصر، ووصل سواحل فرنسا وإنكلترا. سافر إلى القسطنطينية وسواحل آسيا الصغرى. عاش فترة في صقلية ونزل فيها ضيفا على ملكها روجر الثاني، ولا نعرف شيء عن نهاية حياته ومكان وفاته.

اختار الإدريسي الانتقال إلى صقلية بعد سقوط الدولة الإسلامية ، لأن الملك النورماني في ذلك الوقت «روجر الثاني» كان محبًا للمعرفة.

شرح الإدريسي لروجر موقع الأرض في الفضاء مستخدمًا في ذلك البيضة لتمثيل الأرض، شبه الإدريسي الأرض بصفار البيضة المحاط ببياضها تمامًا كما تهيم الأرض في السماء محاطة بالمجرّات.

أمر الملك الصقلي روجر الثاني له بالمال لينقش عمله خارطة العالم والمعروف باسم «لوح الترسيم» على دائرة من الفضة. في إحدى المرات قدم وصفًا عن وضع السودان، وعن حالة مدن مثل « المواقع بدقة متناهية تمامًا، كما هي على أرض الواقع، مع أنها كانت فقط من خلال الاستماع إلى بعض القصص والكلمات. استخدم الإدريسي خطوط العرض أو الخطوط الأفقية على الخريطة والكرة الأرضية التي صنعها. استخدمت خطوط الطول من قبله إلا أن الإدريسي أعاد تدقيقها لشرح اختلاف الفصول بين الدول. دُمرت تلك الكرة خلال اضطرابات مدنية في صقلية بعد وفاة الملك «روجر الثاني» .في جزيرة صقلية تفتقت مواهبه العلمية وقام بعمله الخالد الذي عرف به في التاريخ، وكانت صقلية في ذلك العهد قد خرجت من حكم المسلمين، وخضعت لحكم النورمان المسيحيين، وان كان المسلمون يكونون فيها أكبر جالية من السكان غير المسيحيين، وكان ملوكها من النورمان وخاصة روجر الثاني الذي عاش الشريف في اكنافه، يتشبه بالمسلمين ويتظاهر بعاداتهم في اللباس والهيئة وشارات الملك، ويخالف عادة الإفرنج في كل ذلك .. وكان يكرم المسلمين ويقربهم وينتفع بخبرتهم ومعارفهم .. قال صلاح الدين الصفدي في ترجمة الشريف الإدريسي من كتابه «الوافي بالوفيات» عن الملك روجر الثاني : ««وهو الذي استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ليصنع له شيئا في شكل صورة العالم...»».

حدد الإدريسي مصدر نهر النيل، ففي موقع معين وضع نقطة تقاطع نهر النيل تحت خط الإستواء، وهذا هو موقعه الصحيح. قبل دخول مصر تلتقي روافد نهر النيل في الخرطوم عاصمة السودان، يتشكل نهر النيل من نهرين هما النيل الأبيض والنيل الأزرق ، يجري هذان النهران عبر أراضي السودان ويلتقيان في الخرطوم التي تقع تحت خط الإستواء . إن تحديد موقع نهر النيل يُلغي نظرية بطليموس أن مصدر نهر النيل هو تلة في القمر.

اشتهر الشريف الإدريسي بولعه بالبحار وحركتها، وقد كان ميناء سبتة في عهده يعرف حركة تجارية كبيرة، وقد كانت تجذب صاحب السفن التجارية الراسية في ميناء سبتة، وكان يعتمل في داخله شوق كبير لاستكشاف الدول التي كانت تبحر منها وإليها هذه السفن، وسرعان ما تحوّلت رغبته إلى حقيقة عندما رحل لمتابعة تحصيله العلمي في قرطبة، فترسخ لديه ميوله إلى العلوم الطبيعية خصوصا علمي الجغرافيا والنبات.

ويعتبر الشريف الإدريسي أحد كبار الجغرافيين في التاريخ الإنساني، كما كان له اهتمام بالتاريخ، والأدب، وعلم النبات، والطب، والفلك.. أخذ العلم بسبتة وقرطبة، وزار الحجاز و تهامة ومصر، ووصل سواحل فرنسا وإنجلترا، وسافر إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى، ثم عاش فترة في صقلية ونزل فيها ضيفا على ملكها روجر الثاني، وقد عاش مدة طويلة من الغربة عن بلده سبتة.

وألف الإدريسي كتابه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) والمسمى أيضا (كتاب روجر) أو (الكتاب الروجري) وذلك لأن الملك روجر ملك صقلية هو الذي طلب منه تأليفه كما طلب منه صنع كرة من الفضة منقوش عليها صورة الأقاليم السبعة، ويقال أن الدائرة الفضية تحطمت في ثورة كانت في صقلية، بعد الفراغ منها بمدة قصيرة، وأما الكتاب فقد غدا من أشهر الآثار الجغرافية العربية، افاد منه الأوروبيون معلومات جمة عن بلاد المشرق، كما افاد منه الشرقيون، فأخذ عنه الفريقان ونقلوا خرائطه، وترجموا بعض أقسامه إلى مختلف لغاتهم وبعد هذا الكتاب فريد من نوعه استغرق تأليفه 15 عامًا حيث نهج فيه الإدريسي نهجا جديدا عن غيره من الجغرافيين المسلمين فقد وصف العالم ككل ثم قسمه إلى سبعة أقاليم وكل إقليم إلى عشرة أقسام رئيسيه ثم وصف كل قسم ورسم له خريطة وتحاشى فيه الخلط بين التاريخ والجغرافيا وظل كتابه مرجعًا لعلماء أوروبا أكثر من ثلاثة قرون.

وفي كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) اشتهر الإدريسي بأنه هو الذي طور رسم الخرائط بطريقة أكثر دقة من الخرائط التي كانت معروفة من قبل. يمكن رؤية ذلك بوضوح في خرائطه، حيث لجأ إلى تحديد اتجاهات الأنهار والبحيرات والمرتفعات . وضمنها أيضا معلومات عن المدن الرئيسية بالإضافة إلى حدود الدول .. وقد استخدم الإدريسي خطوط العرض أو الخطوط الأفقية على الخريطة والكرة الأرضية التي صنعها، وكانت خطوط الطول قد استخدمت قبل الإسلام.

إلا أن الإدريسي أعاد تدقيقها لشرح اختلاف الفصول بين الدول. وإن خط العرض الذي رُسم اعتباطيا على الخريطة، كان يستخدم عادة لتحديد الفصول وحالة الطقس شمال وجنوب خط الإستواء، لذا فإن مثل هذا التقسيم يوضح فهم الإدريسي للبلدان المختلفة، وهذا ما يشهد على تفوقه وعلو همته.

وصف جزر بحر الشمال

أشار الإدريسي في كتابه الشهير نزهة المشتاق في اختراق الآفاق إلى أيرلندا العظمى (أيرلندا الكبيرة). وتبعاً للإدريسي، «من أقصى أيسلندا إلى ما يعرف بأيرلندا الكبرى»، كان وقت الإبحار «يوما واحدا». بالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن الإدريسي والتوجه الشمالي لتقليل المسافات، إلا أن الموقع الوحيد الذي يعتقد أنه المقصود بهذه الإشارة، من المرجح أن يكون كريتلاند.

وصف التجارة الصينية

أشار الإدريسي إلى أن الجنكات (السفن) كانت تحمل الجلد، السيوف، الحديد والحرير. وأشار إلى أن المصنوعات الزجاجية الواردة من مدينة هانكژو وحرير تشوانژو من أفضل البضائع.

في سجلاته عن التجارة الصينية، كتب الإدريسي أيضا عن أسرة سيلا (إحدى الأسر التاريخية الكورية، وأهم شريك تجاري للصين في ذلك الوقت)، وكانت من أولى الأسر العربية التي تقوم بهذا. أدت إشارات الإدريسي إلى سيلا إلى قيام التجار العرب الآخرين بالبحث عن سيلا وتجارتها، وساهمت في إدراك العديد من العرب لسيلا باعتبارها البلد المثالي في شرق آسيا.

مؤلفاته

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق هو كتاب كان نتاج رحلات الإدريسي الفه في صقلية بناء على طلب روجر الثاني، ضمن كل ما عرفه الأقدمون من معلومات زاد عليها ما اكتسبه هو و ما رآه و رصده في أسفاره ورحلاته وفيه اكثر من سبعون خريطة. تقول موسوعة المعرفة ان هذا الكتاب ظل مرجعاً للعلماء الأوربيون [و ربما أيضا للعرب] لمدة اربت على الثمانية سنة، أي حتى القرن السادس عشر الميلادي. و يعرف هذا الكتاب للأوربيين بكتاب روجر.

قام بتأليف كتاب «الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والأزهار والحيوانات والمعادن وتفسير أسمائها بالسريانية واليونانية واللطينية والبربرية». ونلاحظ أن العدد الأكبر من الكتب النباتية كانت تتناول النباتات بغرض إثبات منافعها الطبية، ومعالجاتها الصيدلية. كرّس الباحث الإيطالي تيندارو كاتاني Tindaro Gatani، المقيم في زوريخ وصاحب فكرة إعادة نشر خريطة الإدريسي التي تعد أول خريطة للعالم، عقدين من الزمن لدراسة أعمال الإدريسي بسبب هذه الخريطة. وهو أيضا صقلي المولد والنشأة، والمعروف أن الإدريسي عاش وعمل في صقلية. وفكرته لإعادة نشر هذه الخريطة وتقديمها في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب سنة 2004 و بهذا أن يشير الى فضل العرب على الحضارة الإنسانية من خلال ما قدمه الإدريسي من معارف جديدة في القرن الثاني عشر، كان من شانها تطوير ما تعرفه أوروبا عن العالم في ذلك الوقت.

دوره في جغرافيا العصور الوسطى

قام الإدريسي برسم أول خريطة للعالم بناء على أمر من الملك الصقلي روجر الثاني فكانت مدينة باليرمو هي المكان الذي نشر الإدريسي أول خريطة للعالم فيه، وهي تعرف عند العرب بخريطة الإدريسي، و يقال أنها أول خريطة سليمة (أي صحيحة) تعرف عنها

وقد اخذ الإدريسي حوالي 15 عاماً في رسم هذة الخريطة نتاجا عن رحلاته. وأمر له الملك بالمال عام 1138 لينقش عمله خارطة العالم والمعروف باسم «لوح الترسيم» على دائرة من الفضة تزن 400 رطل رومي في كل رطل 112 درهماً.

تمثلت القرون الوسطى المظلمة في أوروبا في نوعية المعارف الجغرافية لدى خريطة الإدريسي.

فأوروبا في ذلك الوقت كانت صورتها عن العالم تحكمها مجموعة أساطير وهمية وتصورات دينية فرضتها الكنيسة على المجتمع. ونظرا الى ضياع تراث اليونان الجغرافي، فقد حرمت أوروبا من معارف الأوائل. وظلت آراء آباء الكنيسة الرافضة لكروية الأرض مسيطرة على العقول في القرون الوسطى.

وترجمت رحلة الادريسي هذه كاملة الى اللغة الفرنسية فقط، بينما هناك ترجمات جزئية منها في شتى لغات العالم. ولعل سبب ذلك يعود الى ضخامة العمل، فكان كل باحث غربي أراد القاء الضوء على ملاحظات الإدريسي حول موضوع او بلد او مدينة معينة فحسب من دون معالجة الرحلة بكاملها نظراً الى طولها ودقة تفاصيلها.

في كتابه الشهير «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» (ج1، ص 280) يقول كراتشكوفسكي عن الادريسي: «أجداد الادريسي المباشرون، كانوا امراء صغاراً في مالقة. وهم ايضا لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلا بسلطانهم، فاضطروا الى الرجوع الى سبتة في القرن الحادي عشر، وهناك فيما يبدو ولد الادريسي العام 493 هـ/ 1100. ويلوح أن صلة الأسرة بالأندلس لم تنقصم. فالإدريسي تلقى العلم في قرطبة التي يعرفها معرفة جيدة. فالوصف الشامل الذي افرده لها في كتابه يحمل آثار المعرفة المباشرة بالمدينة. وفي عام 510 هـ / 1116، وهو لما يتجاوز السادسة عشرة من عمره - زار آسيا الصغرى، وهذا ما أمكن استنتاجه بالتحديد في شان رحلاته. والظاهر انه لم ير بقية افريقيا وآسيا. وفي عام 1138 عبر البحر في ظروف يشوبها الغموض الى جزيرة صقلية، حيث كان يوجد بلاط روجر الثاني في باليرمو. وظل الادريسي وثيق الصلة بروجر الى وفاة الأخير في شباط (فبراير) من عام 560 هـ/ 1160م. ثم مرّت عليه وهو في صقلية لحظات قلقة في عهد خليفة روجر ولكنه رجع في ايام شيخوخته في ما يبدو الى مسقط رأسه سبتة.

وصمم الادريسي خريطته على الطريقة العربية في ذلك الوقت، حيث بدأ بالجنوب في أعلى الخريطة، ثم انتقل الى الشمال في أسفلها، وهذا يعني ان خريطته ينبغي أن تقرأ بالمقلوب. تتكون مخطوطة الخريطة من 70 ورقة (33 × 21 سم) تصل الى نحو 5 أمتار مربعة. وقام العالم الألماني كونراد ميلر بنشر نسخة ملونة منها سنة 1928، بعد ان بذل مجهودا خارقا من اجل تجميع اجزائها المختلفة، وترجمة الأسماء العربية الى الألمانية.

مشروع إعادة نشر خرائطه

إن مشروع اعادة نشر خريطة الادريسي مع نص ميلر، وعرضها في معرض فرانكفورت للكتاب أثناء استضافة العالم العربي كضيف شرف، هو اشارة قوية الى اسهامات العرب والمسلمين في تطوير المعارف الانسانية من ناحية، ومن ناحية أخرى يرمز الى وحدة الثقافات وتعاونها وليس صراعها وتطاحنها، وما أحوجنا اليوم الى مثل هذه المشروعات التي تشدد على وحدة الحضارة الانسانية لمواجهة مروجي نظرية صراع الحضارات. وهناك اتصالات مع السياسي الصقلي كفارو، عمدة مدينة بالرمو، من أجل مشاركة المدينة في دعم هذا المشروع. كما أن السفارة الايطالية في برن تتابع باهتمام هذا المشروع وتنوي دعمه، خصوصا ان صاحب المشروع غاتاني ينشر دراساته في مجلة «الغرفة التجارية السويسرية - الايطالية».

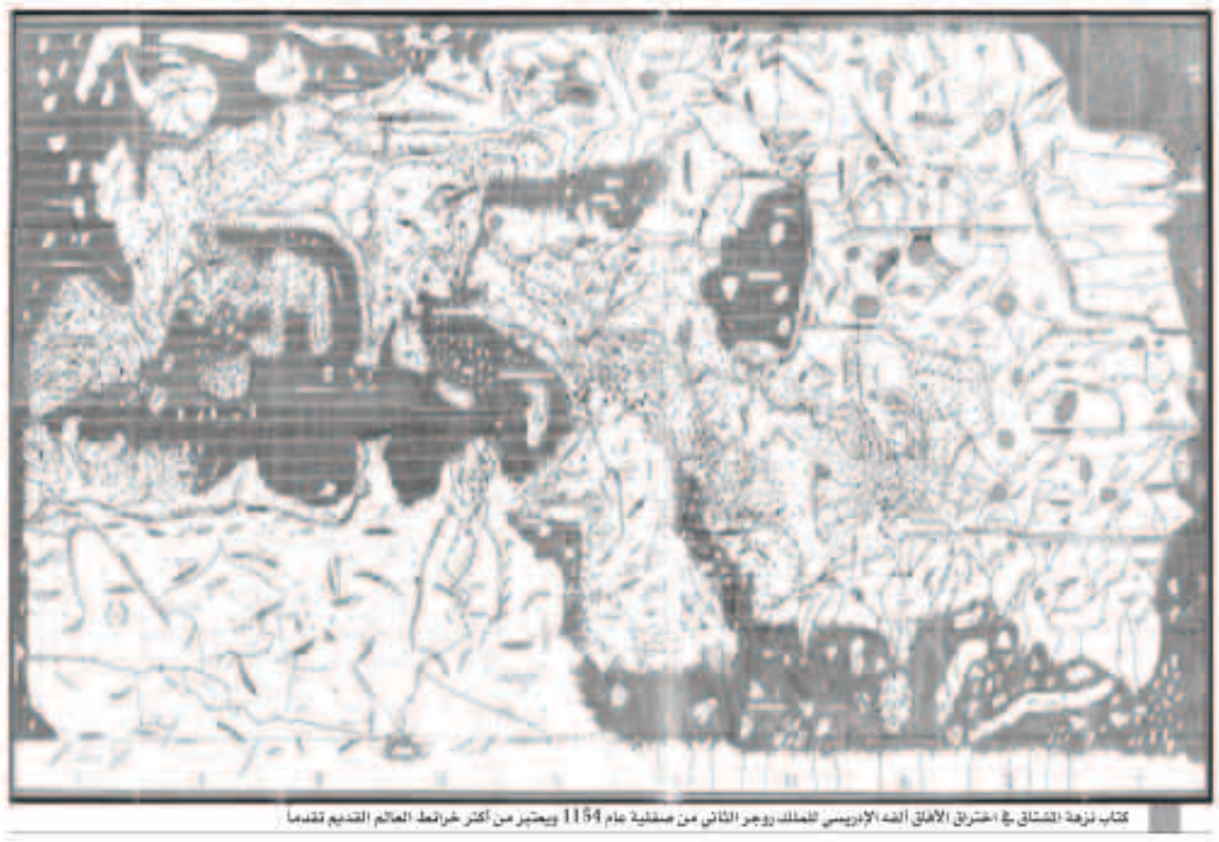
كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذه الإدريسي للملك روجر الثاني من صقلية عام 1154 ويعتبر من اكثر خرائط العالم القديم تقدماً

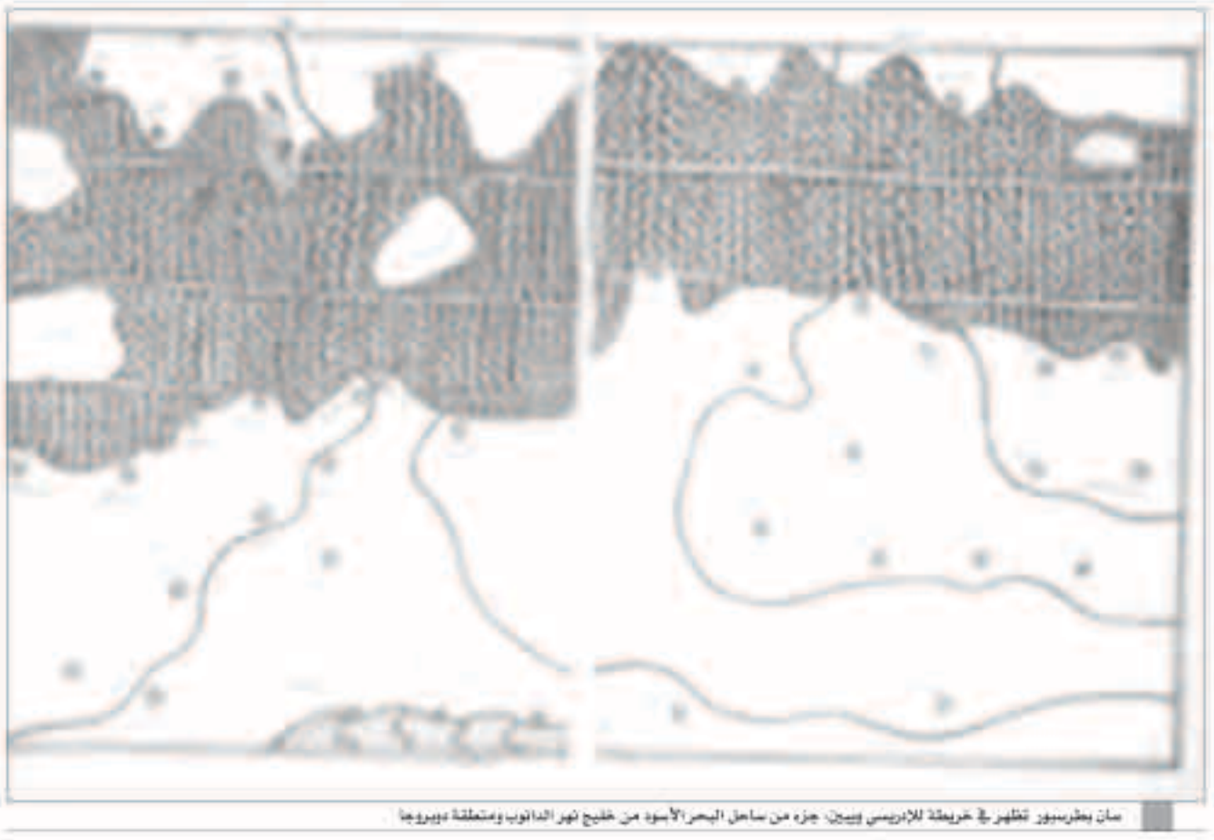
سان بطرسبور تظهر في خريطة للإدريسي ويبين: جزء من ساحل البحر الأسود من خليج نهر الدانوب ومنطقة دوبروجا